الفصل الثامن والاربعون بعد المئة

القريض والرجز والقصيد

ويقال للشعر : القريض وهو الاسم كالقصيد ، والقرض : قول الشعر خاصة، والتقريض صناعته . وقد فرّق (الأغلب العجلي) بين الرجز والقريض بقوله :

أرجزاً تريد أم قريضا ؟ كليهما أجِدُ مستريضا [1]

وقد ورد أن أصحاب رسول الله كانوا يتقارضون ، أي يقولون القريض وينشدونه . وورد أن (المنذر) ملك الحيرة حين أراد قتل (عبيد بن الأبرص) قال له : أنشدني من قولك ، فقال عبيد : حال الجريض دون القريض، فذهب قوله مثلاً [2] . و « قال النحاس : القريض عند أهل اللغة العربية الشعر الذي ليس برجز » [3] .

ويلاحظ ان العرب وإن قالوا : « نظمتُ الشعر ونظمته » ، وقصدوا

---

١ اللسان (٢١٨/٧ وما بعدها ،
أرجزا تريد أم قصيدا لقد طلبت هينا موجودا
الأغاني (٩٧/١٤) ، تاج العروس (٧٥/٥) ، (قرض) .

٢ اللسان (٢١٨/٧ وما بعدها) ، (قرض) .

٣ العمدة (١٨٤/١) .

بـ (النظم) الشعر ، وعرّفوا الشعر بأنه « منظوم الكلام »[1] ، غير انهم كانوا يقولون أيضاً : « قال شعراً » ، و « وهو يقول الشعر » ، وفي القرآن : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون »[2] ، و « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل وادٍ يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون »[3] . ويقولون : قول شاعر .

والشعر في تعريف علمائه : « منظوم القول،غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية »، وهو « الكلام المقفى الموزون قصداً »[4] ، ومن صيروا الكلام نوعين : كلام منظوم ، وكلام منثور . والفرق بينهما هو في وجود الوزن والقافية في الشعر ، وفي عدم وجودهما في الكلام المنثور . وتوجد هذه النظرة عند (أفلاطون) ، و (فيثاغورس) ، وهي تختلف بعض الاختلاف عن رأي (ارسطو) في الشعر[5].

« وزعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً أو قطعاً ، وأنه إنما قُصّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصّده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجمحي وغيره . وأول من طول الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلي شيئاً يسيراً ، وكان على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ثم أتى العجّاج فافتنّ فيه فالأغلب العجلي والعجاج في الرجز كامرىء القيس ومهلهل في القصيد »[6] .

والقصيد من الشعر ما تمّ شطر أبياته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . قال (ابن جني) : « سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً . وذلك ان ما تمّ من الشعر وتوفر آثر عندهم وأشدّ تقدماً في أنفسهم مما قصر واختل ، فسمّوا ما طال ووفر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين،

---

١ اللسان (٥٧٨/٠) .
٢ الحاقة ، الآية ٤١ .
٣ الشعراء ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .
٤ اللسان (٤١٠/٤) ، (شعر) ، الصاحبي (٢٧٣) ، ارشاد الساري (٨٨/٩) .
٥ Poetics, C. I, (1447A), Borinski, Die Antike in Poetik und Kunstheorie, I, 43.
٦ بلوغ الأرب (٨٣/٣) ، العمدة (٨٩/١ وما بعدها) ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

والجمع قصائد »[1] . وذكر علماء الشعر : « سمي الشعر التام قصيداً ، لأن قائله جعله من باله قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روّى فيه خاطره واجتهد في تجويده ، ولم يقتضبه اقتضاباً ، فهو فعل من القصد». « وقالوا شعر قصيد اذا نقح وجوّد وهذب »[2] .

جاء في قول شاعر :

قد وردت مثل اليماني الهزهاز تدفع عن أعناقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجّاز

يقال : أقصد الشاعر وأرمل وأهزج وأرجز ، من القصيد والرمل والهزج والرجز[3] .

والرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة أجزاء ، وهو الذي يترنمون به في عملهم وسَوقهم ويَحْدون به . هذا هو تعريفه عند بعض العلماء . وعَرّفه بعضهم: أنه بحر من بحور الشعر معروف ونوع من أنواعه يكون كل مصراع منه مفرداً، وتسمى قصائده أراجيز ، واحدتها أرجوزة ، وهي كهيئة السجع إلا أنه في وزن الشعر ، ويسمى قائله راجزاً كما يسمى قائل بحور الشعر شاعراً وعرفه آخرون أنه شعر ابتداء أجزائه سببان ثم وتد،وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس[4]. وذكر أن كل شعر تركب تركيب الرجز سُمي رجزاً[5] . والرجز في الوقع سجع موزون . ونجد شبهاً في التوراة ، حيث ورد على ألسنة الحكماء العبرانيين في سفر الأمثال[6] وعلى لسان بلعام الحكيم[7] ، الذي جعله بعض العلماء لقمان الحكيم المذكور في القرآن .

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٧) .
٢ المصدر نفسه (٢/٤٦٨) .
٣ تاج العروس (٢/٤٦٦) .
٤ اللسان (٥/٣٥٠ وما بعدها) ، (رجز) ، البيان والتبيين (٢/١٨٤) ، (١٣١٣)، العمدة (١/١٢١ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تأريخ الآداب العربية (١٨٦) .
٥ اللسان (٥/٣٥١) .
٦ الامثال ، الاصحاح ٢١ ، الآية ٢٧ وما بعدها .
٧ العدد ، الاصحاح ٢٢ ، الآية ٥ وما بعدها .

وذكر بعض العلماء ان الرجز انما سمي رجزاً لأنه تتوالى فيه في أوله حركة وسكون ثم حركة وسكون الى أن تنتهي أجزاؤه ، يشبه بالرجز في رجل الناقة ورعدتها ، وهو أن تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن[1] ، وقيل سمي بذلك لتقارب أجزائه واضطرابها وقلة حروفه ، وقيل لأنه صدور بلا أعجاز. وقيل الرجز ضرب من الشعر معروف وزنه مستفعلن ست مرات ، فابتداء أجزائه سببان ثم وتد ، ولذلك جاز أن يقع فيه المشطور وهو الذي ذهب شطره والمنهوك ، وهو الذي قد ذهب منه أربعة أجزاء وبقي جزءان[2] . وذهب بعض العلماء الى ان الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور ، والمنهوك ، والمقطع[3] .

وهو تام ومختصر . والمختصر ، أنواع : المجزوء والمشطور والمنهوك . وذُكر ان الذي جرى على لسان الرسول من الرجز ضربان : المنهوك والمشطور[4] .

والأرجوزة القصيدة من الرجز ، وهي كهيأة السجع إلا انه في وزن الشعر ، والجمع أراجيز . ويسمى قائله راجزاً ورجّازاً ، ورجازة ، ومرتجزاً[5] . وقد فرّق علماء الشعر بين الشاعر والراجز ، فأطلقوا لفظة (الشاعر) على من ينظم الشعر ، أي (القصيد) ، وأطلقوا كلمة (الراجز) على من يرتجز الرجز . فنجدهم يقولون : الأغلب الراجز ، والعجاج الراجز ، وأبو الزحف الراجز ودكين الراجز وغيرهم[6] .

وقد اختلف العلماء في طبيعة الرجز ، فمنهم من جعله شعراً صحيحاً ، وضرباً من الشعر ، معروف وزنه ، ومنهم من جعله صنفاً من أصناف الكلام قائماً بنفسه ليس بشعر ، ولا بسجع ، وإنما مجازه مجاز الشعر . ونسب الى (الخليل) قوله : الرجز شعر صحيح في رواية ، وقوله : إنه ليس بشعر ، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث في رواية أخرى[7] . ومردّ اختلافهم فيه هو ما ورد على لسان الرسول من الرجز المنهوك والمشطور ، وما ورد في القرآن الكريم من قوله : « وما علمناه

---

١ اللسان (٥/٣٥١) ، (رجز) .
٢ تاج العروس (٤/٣٦) ، (رجز) .
٣ العمدة (١/١٨٢) .
٤ اللسان (٥/٣٥١) .
٥ تاج العروس (٤/٣٧) ، (رجز) .
٦ الشعر والشعراء (٢/٤٩٣ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥٧٨) .
٧ تاج العروس (٤/٣٦) ، (رجز) ، اللسان (٥/٣٥٠) ، (رجز) .

الشعر وما ينبغي له »[1] ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقـول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[2] . وما ورد في كتب الحديث والأخبار من أن الرسول لم يكن ينشد الشعر ولا يقوله وينظمه ، لأنه لم يكن شاعراً وما كان له أن يقوله ، وأنه إذا استشهد بالشعر ، لم يقمه على وزنه، وإنما كان ينشد الصدر أو العجز ، ثم يجيء بالنصف الثاني على غير تأليف الشعر، لأن نصف البيت لا يقال له شعر ولا بيت ، ولو جاز أن يقـال لنصف البيت شعراً لقيل لجزء منه شعر . وقد جرى على لسان النبي : أنا النبي لا كـذب ، أنا ابن عبد المطلب . فلو كان شعراً لم يجر على لسانه[3] . وجاء على لسانه .

هل أنتِ إلا اصبعٌ دميت وفي سبيـل الله مـا لقيت[4]

فالرجز اذن ليس بشعر .

وقد ردّ من يقول إن الرجز شعر على قول من يقول إنه ليس بشعر ، بقوله: « معنى قول الله عزّ وجلّ : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، أي لم نعلمـه الشعر فيقوله ويتدرب فيه حتى ينشيء منه كتباً ، وليس في انشاده صلى الله عليه وسلم البيت والبيتين لغيره ما يبطل هذا لأن المعنى فيه أنا لم نجعلـه شاعراً »[5] ، مطبوعاً على نظم الشعر وقوله ، ولهذا فلا صلة لموضوع أصل الرجز ، هل هو نوع من الشعر ، أو ليس بنوع منه مع ما جاء من نفي الشعر عن الرسول .

وورد في الحديث ، ان الرسول كان يرتجز برجز (عبدالله بن رواحة الأنصاري) الشاعر النقيب ، وهو ينقل التراب يوم الخندق ويقول :

---

١ سورة يس ، الآية ٦٩ ، تفسير الطبري (١٨/٢٣) ، تفسير الألوسي (٤٣/٢٣) .

٢ الحاقة ، الآية ٤٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٤١/٢٩) ، تفسـير الألوسـي (٥٢/٢٩) .

٣ تاج العروس (٣٦/٤) ، (رجز) ، ارشاد الساري (٨٨/٩) ، اللسان (٥/٣٥٠)، (رجز) .

٤ العمدة (١٨٥/١) .

٥ تاج العروس (٣٦/٤ وما بعدها) ، (رجز) ، اللسان (٥/٣٥٠ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٥٢/١٥ وما بعدها) .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنـــا ولا صلينا
فأنزلـن سكينـــة علينـــا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنـــة أبينا[1]

ورويت الأبيات بصورة أخرى . فقد روي انه « لما خرج عامر بن الأكوع الى خيبر جعل يرجز بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسوق به الركاب ، وهو يقول :

تا الله لولا الله ما اهتدينا وما تصدقنـــا ولا صلينا
الكافرون قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنـــة أبينـــا
ونحن عن فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينـــا
وأنزلن سكينة علينا[2]

وموضوع أصل الرجز اذن ، موضوع ظهر في الاسلام ، لما ورد في الأخبار من ارتجاز الرسول بعض الرجز ، ولما ورد في القرآن الكريم وفي الحديث من نفي قول الشعر ونظمه عنه . فرأى فريق من العلماء إخراج الرجز من الشعر ، لما بينته من أسباب . ورأى فريق آخر ، ان الرجز جزء من الشعر ، وان ارتجاز الرسول الرجز ، لا يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم ، لأن الرسول لم يتدرب عليه ولم يتعلمه ولم ينشأ منه أراجيز ، وانما ارتجز منه قليلاً من غير قصد ولا عمد ، ولا علاقة لذلك بالانكباب على تعلم الشعر والتخصص به . والدليل على ان الرجز نوع من أنواع الشعر ، هو ما يرويه أهل الأخبار أنفسهم من أن قريشاً اجتمعوا الى (الوليد بن المغيرة) وكان ذا سن فيهم ، ليتدبروا أمـــر الناس اذا حضر الموسم ، ولإيجاد جواب موحد لهم في أمر القرآن وفيما يجب قولهم فيه . فلما قالوا له : نقول انه قول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهـــان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعـــر كله رجزه وهزجه وقريضه

---

١ ارشاد الساري (١٥٧/٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٦/١ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٧/١) .

ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر »[1] . فالرجز – إن صح هذا الخبر – هو مثل الهزج والقريض والمقبوض والمبسوط صنف من أصناف الشعر ، ولون من ألوانه، ومن هذه الأصناف المذكورة تكون الشعر في نظر الجاهليين .

فالرجز إذن صنف من أصناف الشعر ، وبحر من بحوره ، له وزن وإيقاع ، هكذا كانت نظرة أهل الجاهلية اليه . وهو في الواقع شعر . و « الرجّاز شعراء عند العرب وفي متعارف اللسان »[2] .

« وليس يمتنع الرجز على المقصّد امتناع القصيد على الراجز ، ألا ترى أن كل مقصد يستطيع أن يرجز وان صعب عليه بعض الصعوبة ، وليس كل راجز يستطيع أن يقصّد ، واسم الشاعر وإن عمّ المقصد والراجز فهو بالمقصد أعلق ، وعليه أوقع ، فقيل لهذا شاعر ، ولذلك راجز ، كأنه ليس بشاعر ، كما يقال خطيب أو مرسل أو نحو ذلك »[3] .

ولسهولة الرجز على اللسان لم ينظر اليه نظرة إكبار مثل نظرتهم الى الشعر . هذا (أبو العلاء) المعري ، يجعل جنة الشعراء جنّة سامقة ، لها بيوت عالية ، أما جنة الرجز ، فجنة أبياتها ليس لها سموق أبيات الجنة ، جعل فيها : أغلب بني عجل ، والعجاج ، ورؤبة ، وأبو النجم ، وحميد الأرقط ، وعُذافر بن أوس ، وأبو نخيلة ، ثم يقول : « تبارك العزيز الوهابُ ! لقد صدق الحديث المروي : إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها . وإن الرجز لمن سفساف القريض ، قصرتم أيها النفر فقصر بكم »[4] .

ويعد الرجز من أقدم أنواع الشعر ، ومن أبسطه وأيسره على الإنسان . ثم هو خفيف على النفس ، فيه طرب وتأثير ، وهو مطاوع يؤدي أغراضاً مختلفة ، ويصلح لأن يعبر عن أحاسيس متنوعة ، حتى يكاد أن يكون مطيّة الشعراء ، يركبها كل من له طبع وذوق وحس مرهف ، ومن هنا صار شعر من كان لا يقول الشعر أو لا يحضره إلا في الملمات والأزمات .

---

١ الروض الأنف (١/١٧٣) ، اللسان (٥/٣٥٠) .
٢ العمدة (١/١٨٥) .
٣ العمدة (١/١٨٦) .
٤ رسالة الغفران (٣٧٣ وما بعدها) .

وهو في نظري أقدم من (القصيد) ، لأنه أبسط منه وأسهل على النظم ، فهو يمثل المرحلة الأولى من مراحل الشعر المألوف. وقد تكون سهولته في النظم، هي التي جعلت كبار الشعراء يأنفون من النظم به ، فهو باب يمكن أن يلجه الشعراء الصغار ، وربما يتغلبون به على كبار أهل القصيد ، ولعل سهولته هذه قصرت في عمره ، إذ جعلت الذاكرة تنساه بسرعة ، لسهولته هذه ، كما يسرع نسيان السجع والكلام الاعتيادي من الذاكرة . فضاع بسبب ذلك الرجز الجاهلي ، ولم تبق منه غير بقية قليلة .

واستعمل الرجز في أحوال البديهة والارتجال ، وقد ارتجز في القتال ، وفي الحداء والمفاخرة ، وما جرى هذا المجرى ، واستعمل في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط واثارة همم ، لما فيه من ملاءمة لذلك . فلما بنى المسلمون مسجد الرسول بالمدينة ، وكان الرسول يحمل (اللبن) معهم ، كان الصحابة يرتجزون الرجز لإثارة الهمم وللتخفيف من وطأة العمل . قال « أبو عبيدة : انما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، اذا حارب أو شاتم أو فاخر،حتى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد . فكان في الرجاز كامرىء القيس في الشعراء ... وقال غيره : أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ، وهو قديم ، وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، لأنه انما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك »[1] .

ويعد (الأغلب بن جشم بن عمر بن عبيدة بن حارثة العجلي) أول من نحا بالرجز منحى القصيد ، فأسبغه وأطاله . وهو من المخضرمين . وقد قتل بنهاوند سنة (٢١ هـ).. وهو الذي جاء الى (المغيرة بن شعبة) ، فقال له :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طلبت هينا موجودا

وكان الخليفة (عمر) — على ما يذكره أهل الأخبار — كتب الى المغيرة وهو

---

١ العمدة (٨٩/١ وما بعدها) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، الأغاني (١٦٤/١٨) .

على الكوفة أن استنشد من قبلك من الشعراء عما قالوه في الإسلام مكان الشعر ، فكتب بذلك الى (عمر) فكتب اليه أن أنقص من عطاء الأغلب خمسمائة فزدها في عطاء لبيد[1] .

وروي أن (العجـــاج) ، وهو (عبدالله بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن عمرو) أبو الشعثاء التميمي ، والد الشاعر (رؤبة) ، هو أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد ، وجعل له أوائل[2] . وهو من شعراء الإسلام، وكان يفد على ملوك بني أمية من أمثال الوليد بن عبد الملك[3]،وسليمان بن عبد الملك[4] .

وهو قليل الورود في شعر الشعراء الجاهليين ، فقلما استعمل (نوابغ الشعراء في زمان الجاهلية) « الرجز ، كأنه ليس أهلاً لمنزلتهم. ففي ديوان امرىء القيس لا نعثر إلا على أربع مقطعات صغيرة منه . أعني اثنتين من المشطور واثنتين من غير المشطور . وأكثر من امرىء القيس ارتجازاً لبيد بن ربيعة من الذين أدركوا الاسلام تنسب اليه خمس عشرة مقطّعة في الرجز المشطور ، تدور عـــلى المفاخرة والحكمـة والمعاتبة والمديح والرثاء ، وتشتمل إحداها وهي أطولها على ستة عشر بيتـاً .

أما دواوين النابغـة الذبيانـي ، وزهـــير بن أبـي سُلمى، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة الفحل ، فلا شيء فيها من الرجز . وعلى كل حال لم يكن الارتجاز في زمان الجاهلية إلا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً في الهجاء أو في الحرب وعند اللقاء . أما في القرن الأول للهجرة ، فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظمون الشعر في ذلك البحر المحتقر فإلى هذا التغير أشار ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة حين قال : قال أبو عبيدة انما كان الشاعر يقول من الرجـــز البيتين والثلاثة ونحو ذلك اذا حارب أو شاتم أو فاخر حتى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليهـا ووصف ما فيها

---

١ المؤتلـــف والمختلف (٢٢) ، طبقات الشعراء (١٤٨ وما بعدهـــا) ، الأغانـي (١٦٤/١٨ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الأدب العربي (٢٢٥/١) ، الشعر والشعراء (٥١١/٢) ، الاصابة (٧١/١) ، (رقم ٢٢٥) ، الخزانة (٢٣٣/١) ، أسد الغابة (١٠٥/١) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤٩/١) .

٣ بروكلمن (٢٢٦/١) .

٤ الشعر والشعراء (٤٩٣/٢) .

وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد ، فكان في الرجّاز كامرىء القيس في الشعراء . وقال غيره أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ، وهو قديم . وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، لأنه انما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك .

ولكن لا شكّ في وقوع سهوٍ في آخر كلام ابن رشيق ، لأنه من الواضح أن الجمحي إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد ، فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتأريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحي جهل ما هو متداول عند كل العلماء أن الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية . وقول الجمحي صواب تؤيده عدة نصوص منها شهادة العجاج من أشهر شعراء الأراجيز الذي قال مفتخراً :

وإن يَكُن أمسى شبابي قد حسر وفترت مني البواني وفتر
إني أنا الأغلبُ أضحى قد نُشِرْ

يعني أنه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جشم العجلي عاش في الجاهلية مدة وأدرك الاسلام وأسلم وله شعر في سجاح لما تزوجت مسيلمة الكذاب »[1] .

و (الهزج) نوع من أعاريض الشعر ، من الأغاني وفيه ترنم[2] . وهو باب معروف من أبواب الشعر عند الجاهليين ، كباب الرجز ، بدليل جعل (الوليد ابن المغيرة) اياه صنفاً من أصناف الشعر.وقد عرف من كان يقول الهزج بـ (الهزاج) و (أهزج) إذا هزج الهزج ، أي قال به . والهزاجون طبقة امتازت عن غيرها بقولها الهزج ، وكانوا يرددونه ترديد الغناء ، ولذلك عدّ من الأغاني ، وقالوا : الهزج صوت مطرب . قيل سمي بذلك تشبيهاً بهزج الصوت ، وقيل لطيبه لأن الهزج من الأغاني[3] . فهي إذن من الشعر الغنائي « Lyric » .

---

١ كارلو ناليو ، تأريخ آداب اللغة العربية (١٨٦ وما بعدها) .
٢ اللسان (٢/٣٩٠ وما بعدها) ، (هزج) .
٣ تاج العروس (٢/١١٦) ، (هزج) .

وقد استعمل العرب الهزج في أناشيد التنشيط للقتال ، وفي المناسبات العامة ، مثل الأفراح ، والتجمعات ، حيث يترنم القوم جماعة بأنغام الهزج ، فالهزج شعر مقرون بغناء وترنيم .

و (الرمل) من الشعر كل شعر مهزول غير مؤتلف البناء . قال بعض العلماء عنه : « وأما الرمل فإن العرب وضعت فيه اللفظة نفسها ، عبارة عندهم عن الشعر الذي وضعه أهل الصناعة ، لم ينقلوه نقلاً علمياً ولا نقلاً تشبيهياً . وبالجملة فإن الرمل كل ما كان غير القصيد من الشعر وغير الرجز »[1] . وقد أخذ علماء العروض اللفظة والمعنى كما سمعوها من العرب ولم يحدثوا عليها أي تغيير . مما يدل على انه كان من الأبواب المميزة المعروفة عند الجاهليين . وذلك مثل الرجز والقصيد[2] ، والمقبوض والمبسوط ، على نحو ما ذكرت قبل قليل .

وأما (القصيد) من الشعر ، فما تم شطر أبياته أو شطر أبنيته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد ، وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً ، وذلك ان ما تم من الشعر وتوفر آثر عندهم وأشد تقدماً في أنفسهم مما قصر واختل ، فسموا ما طال ووفر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين[3] . وقيل « القصيد من الشعر المنقح المجوّد المهذب الذي قد أعمل فيه الشاعر فكرته ولم يقتضبه اقتضاباً كالقصيدة »[4] .

والقصيد ، جمع القصيدة ، وقيل : الجمع قصائد وقصيد . سُمي قصيداً لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد والمعنى المختار ، وقالوا : سمي الشعر التام قصيداً لأن قائله جعله من باله فقصد له قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روي فيه خاطره واجتهد في تجويده ولم يقتضبه اقتضاباً[5] . ويقال قصد الشاعر وأقصد ، اذا أطال وواصل عمل القصائد . والذي في العادة أن يُسمى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة ، فأما ما زاد

---

١ اللسان (٢٩٦/١١) ، تاج العروس (٣٥١/٧) ، (رمل) .
٢ اللسان (٢٩٦/١١) .
٣ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) ، تاج العروس (٤٦٧/٢) ، (قصد) .
٤ تاج العروس (٤٦٨/٢) .
٥ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) .

على ذلك فإنما تسميه العرب قصيدة[1] . « وقيل : إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس .. ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد . ويستحسنون أن تكون القصيدة وتراً ، وأن يتجاوز بها العقد ، أو توقف دونه »[2] . فالقصيدة اذن كلمة طويلة بالنسبة الى القطعة ، فيها وحدة أطول هي وحدة القصيدة ، التي تعرف بقافيتها[3] . ويعبر عنها بلفظة (كلمة) (الكلمة) مجازاً ، كما عبر عنها في المؤلفات القديمة[4] .

وينسب الى (الأخفش) قوله : « القصيد من الشعر هو الطويل ، والبسيط التام ، والكامل التام ، والمديد التام ، والوافر التام ، والرجز التام ، والخفيف التام ، وهو كل ما تغنى به الركبان ، ولم نسمعهم يتغنون بالخفيف »[5] . و(القصد) مواصلة الشاعر عمل القصائد وإطالته كالإقصاد . قال الشاعر :

قد وردت مثل اليماني الهزهاز تدفع عن أعناقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجاز[6]

وكلمة (قصيدة) من الكلمات المستعملة في الشعر الجاهلي . جاء ان أحد شعراء (بكر بن وائل) سخر من تغلب لما كانت تتباهى به من ترديدها لقصيدة شاعرها (عمرو بن كلثوم) في مدح نفسه وقومه ، فقال :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم[7]

وورد في شعر للمسيب بن علس قوله :

فلأهدين مع الرياح قصيدة مني مغلغلة الى القعقاع[8]

---

١ اللسان (٣/٣٥٥) ، تاج العروس (٢/٤٦٧) ، (قصد) .
٢ العمدة (١/١٨٩) .
٣ بروكلمن (١/٥٨) .
٤ الآمدي ، المؤتلف (١٠٦) ، ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، ابن سعد (٣/١٧٦) .
٥ تاج العروس (٢/٤٦٧) ، (قصد) .
٦ تاج العروس (٢/٤٦٦) ، (قصد) .
٧ الاغاني (١١/٥٤) .
٨ المفضليات (٦٢) .

فاللفظة إذن من الألفاظ التي استعملها الجاهليون ، بمعناها المفهوم . وقد بحث في أصلها علماء اللغة ، وذهبوا في تفسيرها مذاهب[1] . وللمستشرقين كلام في أصلها وفي معناها . ذهب بعض منهم إلى أنهـا من القصد والغرض ، وانها قيلت في شعر الطلب أولاً ، ثم أطلقت على كل شعر آخر ، ولهذا اقترح بعضهم ترجمتها بـ (شعر الطلب) أو (شعر التسول) ، وعارض هذا التفسير بعض آخر ، لأن التسول في رأيهم لم يكن الغرض الأول من نظم الشعر ، وإنما كان غرضاً من أغراضه ، ثم إن أقدم الشعراء الذين قصّدوا القصائد لم يكونـوا من الشعراء المتسولين ، وإنما كانوا من المترفعين المتعالين ، ولهذا رفضوا تفسير القصيد بشعر التسول والطلب[1]،وقال (بروكلمن) : « إذا صح أن لفظ القصيد بعيد القدم، فمن الممكن أن يكون الغرض والقصد بحسب الأصل غرضاً من أغراض السحر ، وكثيراً ما صار غرضاً سياسياً في وقت متأخر ، ثم صار يستعمل بأوسع معـاني الكلمة في جميع أغراض الحياة الاجتماعية ، وان كان من الحق أنه استعمل أيضاً منذ عهد قديم في أغراض أنانية محضة »[2] .

وتعرف (القصيدة) بـ (القافية) كذلك . واستشهد العلماء على ذلك بقول الخنساء :

فنحـكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وبقول آخر :

نبثت قافيـة قيلت تناشدها قوم سأترك في أعراضهم ندبا

وذكروا ان (القافية) في قول حسان بن ثابت :

فنحـكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

قد تعني (القصيدة) ، وقد تعني البيت منهـا . « قال الأزهري : العرب

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٥٩) ،
Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 10.

٢ بروكلمن (١/٥٩) .

تسمي البيت من الشعر قافية ، وربما سمّوا القصيدة قافية ، ويقولون رويت لفلان كذا وكذا قافية[1] . والقافية هي (ميقف) في العبرانية .

وأطلقت على القصيدة لفظة (كلمة) ، وقد استعملها (ابن سلام) في مواضع من كتابه (طبقات الشعراء) . فتجده يقول : « ومن شعر حسان الرائع الجيد ما مدح به بني جفنة من غسان ملوك الشأم في كلمة » ، ثم ذكر القصيدة ، ثم يقول : « وقوله في الكلمة الأخرى الطويلة »[2] ، و « قال في يوم أُحد كلمة قال فيها »[3] ، ويقول « وكان أبو الصلت يمدح أهل فارس حين قتلوا الحبشة في كلمة قال فيها »[4] ، و « السموأل بن عادياء يقول في كلمة له طويلة »[5] ، ووردت في مواضع عديدة أخرى بهذا المعنى وفي بقية كتب الشعر والأدب .

وتتألف القصيدة من أبيات . والبيت هو بيت الشعر[6] . ويتكون البيت من شطرين . و (الشطر) نصف الشيء . فشطر البيت نصفه[7] . والبيت في القصيدة الجاهلية وحدة معنوية مستقلة قائمة بذاتها ، إذا انتزعت بيتاً منها ، أو تركت بيتاً ، أو قدمت فيها بيتاً على بيت ، أو أخرت في أبياتها ، فإنك لا تكاد تفصم عرى القصيدة ولا تؤثر على ترابط معناها في الغالب ، لأن كل بيت منها وحدة قائمة بذاتها لا تتصل بما قبلها أو بما بعدها إلا بسبب الوزن والقافية .

وقد عرفت بعض الأبيات بالأوابد . والأوابد من الشعر : الأبيات السائرة كالأمثال[8] . وذكر أن الأوابد الشوارد من القوافي[9] ، ورد في كتب اللغة : « ومن المجاز أبد الشاعر يأبد أبوداً ، إذا أتى العويص في شعره . وهي الأوابد والغرائب وما لا يعرف معناه على بادىء الرأي »[10] .

---

١ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٢ (ص ٥٣ ، ٥٤) .
٣ طبقات (٥٨) .
٤ طبقات (٦٦) .
٥ طبقات (٧١) .
٦ تاج العروس (١/٥٣٠) ، (بيت) .
٧ تاج العروس (٣/٢٩٨) ، (شطر) .
٨ العمدة (٢/١٨٥) .
٩ اللسان (٣/٦٩) ، (ابد) .
١٠ تاج العروس (٢/٢٨٦ وما بعدها) ، (أبد) .

وتكون القصائد طويلة في الغالب ، أما (القطع) ، فهي أقصر من القصيدة . وقد كان (ابن الزبعرى) ، لا ينظم القصائد الطوال ، ويميل الى القطع ، وكان عذره « ان القصار أولج في المسامع ، وأجول في المحافل » . وللشعراء الطوال والقصار ، كل حسب المناسبة[1] . وقد اختتمت بعض القصائد الجاهلية بالحكم والأمثال وبالأقوال المأثورة . وللقصائد الطوال المحبوكة حبكاً حسناً ، والمنظومة نظماً جيداً ، سابقة وقدم على مثيلاتها من القصائد الوسط أو القصيرة ، ومن هنا اختار (حماد) الراوية (السبع الطوال) (السبع الطول) من الشعر الجاهلي ، وزعم في أصلها ما زعم . ونظم القصيدة الطويلة ، يحتاج الى نفس طويل ، والى تمكن من الشعر ، وإلا أصابها الوهن والعجز ، ومن هنا عدّ أصحاب المطوّلات الجيدة من أحسن الشعراء .

وقد ذهب (غرونباوم) الى أن القصيدة العاشرة من القصائد المنسوبة الى (عمرو بن قميئة) ، ربما تكون أقدم قصيدة تامة وصلت الينا من الشعر الجاهلي، « على أنها لم تكن بعد تفي بجميع مقتضيات النقاد النظريين ، لأنها لا تشمل ، في الأبيات التسعة عشر التي تلي النسيب ، إلا على وصف سحابة ممطرة ، ومدح رجل يدعى امرأ القيس بن عمرة . ولو أن هذه القصيدة تأخرت عن العصر ، بوقت قصير ، لاعتبرت أثراً غثاً . وليس السبب في ذلك أن عدد أبيات القصيدة من بعد قد ازداد الى ضعفين أو ثلاثة أضعاف ، أو بلغ أو جاوز المائة ، وإنما هو في كثرة المشاهد التي حشدت حتى تحققت هذه المنظومات الرائعة . ومن شواهد ذلك قصيدتان للأعشى (حوالى ٥٦٥ – ٦٢٩ م) هما الأولى والسادسة من ديوانه، وأولى قصائد أبي ذؤيب الهذلي (ت حوالى ٦٥٠ م) ، وفيها تصوير لسلطة القدر المحتوم في ثلاثة مشاهد مؤثرة تمثل مصرع حمار الوحش القوي وثور الوحش الهائج ، والفارس الشاكي السلاح المستجن بدرعه . وإذ كان الحافز لقول القصيدة هو وفاة ابن الشاعر ، فقد جمعت هذه القصيدة جمعاً موفقاً بين مزايا المرثية وخصائص القصيدة »[2] .

وقد بلغ الشعر الجاهلي ذروته عند ظهور الاسلام . كان الشعراء في هذا العهد ينظمون القصيد ببحوره التي ضبطت وثبتت في الاسلام ، في مقاصد أشرت اليها

---

١ العمدة (١/١٨٦ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (١٣٩) .

في موضع آخر من هذا الجزء من الكتاب ، كما كانوا قد طوّروا الرجز وتفننوا فيه . وقد أدى ظهور الاسلام الى إحداث تغير في نمط نظم القصائد ، لأن الاسلام حدث تأريخي جاء برأي في شؤون الحياة جديد ، فكان لا بد للشعراء من مجاراة هذا التيار الفكري ، لا سيما بعد خروج العرب من جزيرتهم وانتشارهم في أرضين جديدة غنية ، وحكمهم لأقوام كانت لهم حضارة ، فكان لا بد من تأثر النفس بالوضع الجديد ، والشعر تعبير عن النفوس والأحاسيس .

والقافية من الشعر الذي يقفو البيت ، سميت قافية لأنها تقفوه، أو لأن بعضها يتبع أثر بعض . وقيل : هي آخر كلمة في البيت ، أو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ، وهو المسمى روياً . وعرّف (الخليل) القافية بقوله : « القافية من آخر حرف ساكن فيه ، أي في البيت ، الى أول ساكن يليه مع الحركة التي قبل الساكن »[1] . وأرى ان هذا التعريف قد أخذه (الخليل) من أهـل الكتاب . فالقافية بهذا التعريف تقابل Maqqeph (مقف) (مقيف) عند العبرانيين[2] ، و (المقيفات) هي التي تحدد الشعر ، وتجعل من الكلام المؤلف من (مقيفات) شعراً ، ولا يستبعد استعمال الجاهليين لهذا المصطلح استعمال العبرانيين والسريان له، فلما دوّن (الخليل) علم العروض أخذ هذا المصطلح منهم ، ودليل ذلك ورود لفظة (قافية) و (القوافي) في الشعر قبل أيام الخليل[3] ، ثم اختلاف العلـماء وتباين آرائهم في معنى القافية[4] .

ويذكر أهل الأخبار أن (مهلهل بن ربيعة) ، وهو خال (امرىء القيس) الشاعر ، وجدّ (عمرو بن كلثوم) هو أول من قصد القصائد . وقـد قال (الفرزدق) فيه :

ومهلهل الشعراء ذاك الأول[5]

فهو أول شعراء القصائد ، وهو متقدم على (امرىء القيس) .

---

١ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٢ Hastings, p. 737.
٣ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٤ نزهة الجليس (١/١٢٠) .
٥ العمدة (٨٧) ، الشعر والشعراء (١٦٤) .

ويرى (فون غرونباوم) ان الشعراء حرصوا منذ حوالى السنة ٥٠٠ م على التصريع في المطلع ، ثم التزم قافية واحدة في جميع أبيات القصيدة ، من أولها الى آخرها ، بحيث يسوغ القول : إن القافية الواحدة أدل على وحدة القطعة الشعرية من المعاني الواردة فيها .

« ويتجلى في أقدم المحفوظ من الشعر العربي تنويع عظيم في الوزن ، وصقل بارع في التعبير اللغوي . وهذا يعني أنه كان قد نشأ ، قبل ذلك ، مذهب شعري ينص على التنويع والصقل المشار اليهما . وأخذت الأقطار المختلفة تؤثر أوزاناً مختلفة ، ويكاد يكون من المرجح أن الفرس قد تركوا ، في شعر الأقدمين من شعراء العراق ، تأثيراً بالغاً في الطريقة الفنية . فهنالك وزنان على الأقل ، امتاز بهما هؤلاء الشعراء هما الرمل والمتقارب ، وربما زدنا اليهما الخفيف . ويبدو أنها جميعاً اقتبست من أصول فارسية بهلوية ، وحورت بما يلائم الأوضاع العربية .

وربما كان للسريان فضل ما في وضع المصطلحات الفنية الأولى مثل كلمة (البيت) أي (الخيمة) لتدل على الوحدة الجزئية من القصيدة . لكن كان لنظرية الفن العروضي ، على العموم نشأة مستقلة ، فالخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ ـ ٧٩١ م) ، وضع قواعد العروض العربي بعد ذلك بزمن طويل ، وقد بقيت قواعده معتمد الأدباء عبر القرون . فقد أقر الخليل ستة عشر وزناً ، واطرح بعض الأوزان الهزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها . ثم إنه جرى على طريقة ، جرى عليها النحاة من بعد في الرمز الى صيغة اللفظة ، فأشار الى وحدة الإيقاع الشعري بصيغة مشتقة من فعل »[1] .

وقد تكلف الناس كثيراً ، وحمّلوا أنفسهم حملاً ثقيلاً ، باعتذارهم عن أمور متكلفة وردت في شعر زعم انه كان للقدماء من الشعراء ، فالتصريع مثلاً ، اذا كثر استعماله في القصيدة دل في نظر العلماء بالشعر على التكلف ، إن كان من المحدثين ، أما اذا كان من المتقدمين ، فلا يعد متكلفاً في نظرهم ، واعتذروا عنه بأنه جرى على عادة الناس ، لئلا يخرج عن المتعارف . ومن هذا القبيل التصريع المنسوب الى امرىء القيس :

---

١ غرونباوم (١٣٤ وما بعدها) .

تروح من الحي أم تبتكـــر وماذا عليك بأن تنتظـــر
أمرخٌ خيامهـم أم عشر أم القلب في إثرهم منحدر
وشاقك بين الخليط الشطر وفيمن أقام من الحي هر[1]

ونسبوا الى (امرىء القيس) (المسمط) من الشعر . والشعر المسمط الذي يكون في صدر البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة ، وتجمعها قافية مخالفـة لازمة للقصيدة حتى تنقفى . وقيل : أبيات مشطورة تجمعها قافية واحدة ، وهو الذي يقال له عند المولدين (المخمس) . ومن أنواعه المسبع والمثمن ، وقيل المسمط من الشعر أبيات تجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الأبيات . وقيل المسمط من الشعر ما قفى أرباع بيوته وسمط قافية مخالفة . يقال : قصيدة مسمطة وسمطيـة . ومن الشعر المسمط المنسوب الى امرىء القيس قوله :

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذي سفاسق مَيله
فجمتُ به في ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على أثوابه نضح جريال

ونسب له قوله :

توهمت من هنـد معالم أطلال عفاهنَّ طول الدهر في الزمن الخالي
مرابع من هند خلت ومصايفُ يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيَّرها هوجُ الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطّال[2]

وتعرض (المعري) للتسميط في رسالة الغفران ، حين التقى بامرىء القيس ، فسأله : « أخبرني عن التسميط المنسوب اليك ، أصحيح هـو عنك ؟ وينشده الذي يرويه بعض الناس :

---

١ العمدة (١/١٧٤) .
٢ تاج العروس (٥/١٦١) ، (سمط) ، (كان على سرباله ، نفح جريال) ، اللسان (٧/٣٢٢ وما بعدها) ، (سمط) .

يا صحبنا عرّجوا نقف بكم أسج
مهرية دُلُج في سيرها مُعج
طالت بها الرحل
فعرّجوا كلهم والهم يشغلهم
والعيس تحملهم ليست تعللهم
وعاجت الرمل
يا قوم إن الهوى إذا أصاب الفتى
في القلب ثم ارتقى فهدّ بعض القوى
فقد هوى الرجل

فيجيب (المعري) على لسانه بقوله : « لا والله ما سمعت هذا قط ، وإنه لقرى لم أسلكه ، وان الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام ، ولقد ظلمني وأساء إليّ ! أبعد كلمتي التي أولها:

ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصُرِ الخالي

وقولي :

خليلي مرّا بي على أم جندب لأقضي حاجات الفؤاد المعذب

يقال لي مثل ذلك ؟ والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز »[1] .

ونسبوا اليه كثرة التصريع في غير أول القصيدة ، وكثرة استعمال الضرب المقبوض في الطويل ، وكثرة الإقواء في القافية[2] . ويعد الاقواء من عيوب الشعر ، غير أننا لا نستطيع مجاراة علماء العروض في هذا الرأي ، إذ يجوز ألا يكون الاقواء عيباً عند أهل الجاهلية ، وإنما صار عيباً في الإسلام ، بعد تثبيت قواعد اللغة والبحور . ونجد هذا الرأي مثبتاً في رسالة الغفران .

---

١ رسالة الغفران (٣١٩ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/٩٩) .

ولا يمكن أن نتصور ان القصائد الجاهلية الطويلة قد نظمت على نحو ما يرويها أهل الأخبار ، دون اجراء أي تغيير أو تحوير عليها . فقد كان الشاعر ينفعل فينظم قصيدته ويحفظها راويته ويذيعها بين الناس ، ثم يحدث أن تخطر له خواطر أو يسمع نقداً لبعض أبياتها ، أو توجيهاً يبديه له بعض أصدقائه أو يسمع تنبيهاً موجهاً اليه بوجود شيء في قصيدته غفل عنه ، فيجري بعض التغيير عليها من تعديل أو زيادة أو نقصان ، قد يحفظ ويروى ، وقد يهمل ويترك ، ولهذا فنحن لا نستطيع الإدعاء : ان نظم القصائد كان نظماً تاماً ، لم يشمله أي تعديل أو تبديل،وان الشاعر لم يكن ينشد قصيدته إلا بعد أن يكون قد اطمأن منها وضبطها ضبطاً تاماً .

« ومن الشعراء من يُحكم القريض ولا يحسن من الرجز شيئاً ، ففي الجاهلية منهم : زهير ، والنابغة ، والأعشى . وأما من يجمعها فامرؤ القيس وله شيء من الرجز ، وطرفة وله كمثل ذلك ، ولبيد وقد أكثر »[1] .

وليس في مستطاع أحد اثبات ان البحور المدونة في علم العروض ، هي كل بحور الشعر الجاهل وأوزانه ، لم يُهمل منها وزن ، ولم ينس منها بحر ، لأن على من يدعي هذه الدعوى ، إثبات ان الاسلاميين الذين جاءوا بعد الجاهليين قد أحاطوا علماً بكل الشعر الجاهلي ، وانهم أحصوه عدداً ، فلم يتركوا منه بيتاً ولا قطعة ولا قصيدة . وعلماء الشعر ينفون ذلك ويقولون : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام ، أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[2] .

ويرى (غرونباوم) أن الشعر الجاهلي قد تطور : « وتتجلى فيه معالم التطور بصورة واضحة : فمن ذويان اللهجات المتعددة في لغة واحدة ، تجمّع فيها تراث المدارس المختلفة واللهجات المتباينة بصورة متزايدة حتى تحقق حوالى سنة ٦٠٠ ، الى زيادة القيود في نظام العروض الفني ، فإن ظفر بعض الفئات باستنباط تعابير

---

١ البيان والتبيين (٤/٨٤) .
٢ الشعر والشعراء (٧ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

جديدة لم تلبث أن شاعت تدريجياً في أوساط أخرى ، وأخيراً الى اتجاه سياق الشعر نحو الإتساع وعدد أبيات القصيدة الى الازدياد . إن تحليل هذا النمو السريع نسبياً ، على ضوء ما نعرفه عن المخلفات القديمة ليحملنا على الاعتقاد بأن وضع تأريخ معين يحدد بدء الشعر العربي الفني أمر متعذر ، ولكن الغالب على الظن أن أوائل هذا الشعر لا تتخطى أقدم المدوّنات التي بلغتنا بزمن طويل . وهذا الحكم إنما ينطبق على الطبقة الشعرية الثالثة والأخيرة لا غير . ولئن تعاصرت هذه الطبقات الشعرية الثلاث معاً في الفترة الجاهلية المذكورة ، فمن البدهي أنها لم تبرز الى الوجود في وقت واحد »[1] .

التمليط :

وهو أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسماً وهذا قسماً لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه[2] ، وفي الحكاية أن امرأ القيس قال للتوأم اليشكري : إن كنت شاعراً كما تقول فلمّط أنصاف ما أقول فأجزها ، قال نعم . فقال امرؤ القيس :

أحار ترى بريقاً هبّ وهنا

فقال التوأم اليشكري :

كنار مجوسٍ تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس :

أرقت له ونامَ أبو شريح

فقال التوأم :

إذا ما قلتُ قد هدأ استطارا

فقال امرؤ القيس :

كأن هزيمه بوراء غيثٍ

---

١ غرونباوم (١٣٥ وما بعدها) .

٢ اللسان (٤٠٩/٧) ، (ملط) .

فقال التوأم :

عشارٌ وإلـــهٌ لاقت عشارا

فقال امرؤ القيس :

فلما أن عـــلا كتفي أضـــاخ

فقال التوأم :

وهت أعجازُ ربيِّهِ فحـــارا

فقال امرؤ القيس :

فـــلم يترك بذات السر ظبياً

وقال التوأم :

ولم يـترك بجهلتهـــا حمـــارا

فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن في ذلك الحَرْسِ من يماتنه ، آلى ألا ينازع الشعر أحداً آخر الدهر .

وذكر ان شعر التوأم في هذا التمليط ، أقوى من شعر امرىء القيس ، لأن امرأ القيس مبتدىء ما شاء ، وهو في فسحة مما أراد ، والتوأم محكوم عليه بأول البيت ، مضطر في القافية التي عليها مدارها جميعاً ، ومن ههنا عرف له امرؤ القيس من حق المماتنة ما عرف . ونازع أيضاً علقمة بن عبدة ، فكان من غلبة علقمة عليه ما كان[1] .

والمماتنة المعارضة في جدل أو خصومة ، والمباهاة في الجري أو في الشعر ، بأن يتماتن شاعران أو أكثر ليتبين أيهم أشعر[2] .

وقد يمتحن الشعراء بعضهم بعضاً قول الشعر ، كأن يقول أحدهم بيتاً أو نصف بيت ، ثم يقول لصاحبه : أجز ، ليقدم مثله ، قيل : قال زهير بن أبي سلمى بيتاً ثم أكدى ، ومرّ به النابغة الذبياني ، فقال له : يا أبا أمامة ، أجز ، قال : ماذا ؟ قال :

---

١ العمدة (١/٢٠٢ وما بعدها) ، (٢/٩١) .
٢ تاج العروس (٩/٢٤٠) ، (متن) .

تزال الأرض إما مت خِفاً وتحيا ما خبيت بها ثقيلا
نزلتَ بمستقر العز منها . . . . . .

فماذا قال ؟ فأكدى النابغة أيضاً ، وأقبل كعب بن زهير ، وهو غلام ، فقال له أبوه : أجز يا بُني ، فقال : ماذا ؟ فأنشده البيت الأول ومن الثاني قوله : نزلت بمستقر العز منها ، فقال كعب :

فنمنع جانبيها أن يزولا[1]

ومن الإجازة قول حسان بن ثابت :

متاريك أرباب الأمور اذا اعتّرت أخذنا الفروع واجتنبنا أصولها

وأجبل ، فقالت ابنته : يا أبت ، ألا أجيز عنك ، فقال : أو عندك ذاك؟ قالت : بلى ، قال : فافعلي ، فقالت :

مقاويل للمعروف خرس عن الخنا كِرامٌ يعاطون العشيرة سُولها

فحمى حسان عند ذاك ، فقال :

وقافية مثل السنان ردفتها تناولتُ من جوّ السماء نزولها

فقالت ابنته :

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ويعجز عن أمثالها أن يقولها[2]

---

١ أمالي المرتضى (٩٧/١ وما بعدها) .
٢ العمدة (٨٩/٢) .